



## المنهج السيميائي في تفسير القرآن الكريم – قصة صاحب الجنين أنموذجاً – دراسة نقدية

The Semiotic Approach in Interpreting the Holy Quran Story of the Two Gardens' Lord as a Model

Bahçe Sahipleri Kıssası Bağlamında Kur'an-Kerim Tefsirinde Semiyoloji Yönteminin Eleştirisi

Assistant Professor Abdul Salam Mohsen YOUSSEF

Mardin Artuklu University and interpretation of the Quran sciences expertise, Mardin / Turkey

في جامعة ماردين أرتكلو/تركيا عبدالسلام محسن يوسف . تخصص التفسير و علوم القرآن. أستاذ مساعد

ORCID Number: 0000-0001-6522-8709



### ملخص

إن المناهج النقدية الحديثة التي نشأت في الغرب وترعرعت هناك، كانت تقتصر على دراسة الأدب والأعمال الإنسانية عموماً، ومن هذه المناهج: السيميائية وهي تهتم بدراسة النص من خلال الاهتمام بدلالة الإشارات والعلامات الموجودة فيه، ثم رأينا الباحثين المسلمين يتناولون تفسير كتاب الله سبحانه من خلال هذا المنهج. فجاءت نتائج قراءتهم مختلفة عن التفسير المقاصدي، التفسير الذي يهتم بالمقاصد والغايات الكبرى للقرآن الكريم، من خلال تقديس القرآن الكريم وتقديس منزلته، بخلاف السيميائية التي لا تولي أي اهتمام بالقاتل ولا بمقاصده، بل تستغرق في الرسوم والرموز. فهل قدم لنا المنهج السيميائي أي جديد في الحقل التفسيري؟ هذا هو محور البحث، من خلال دراسة نقدية لبحث يتناول قصة صاحب الجنين سيميائياً

**الكلمات المفتاحية:** المنهج، السيميائية، المقاصد، قصة صاحب الجنين، التفسير

### ABSTRACT

The new critical methods, which were originated and developed in the West, were confined to literature and human research in general. Semiotic approach was one of these methods, that focused on studying the significance of signs in the text. We have seen many Muslim researchers interpreting the word of Allah through this approach; therefore, their findings contradict the objectives of interpretation and the noble goals of the Quranic teachings. Semiotic approach is denying the divinity of the text and revelation, focusing on signs unlike the classical method of interpretation which glorifies Quran and revelation. Did Semiotic approach present any new in terms of content? This is a focal point in this research. I attempted to answer that question using the Semiotic method to interpret the story of two gardens' lord and criticize its findings comparing with our venerable commentaries .

**Keywords:** Approach. Semiotic. Objectives. Story of two gardens' lord. Interpretation.

### ÖZET

Batıda ortaya çıkan ve gelişen yeni eleştirel yöntemler edebiyatta ve genelde insan ürünü çalışmalarına münhasır kılınmaktadır. Bu yöntemlerden biri Semiyoloji (Göstergebilim)dir. Bu yöntem bir metnin içerdiği sembol ve işaretlerin anlamlarıyla ilgilidir. Müslüman araştırmacıların da bu yöntemle Allah'ın kitabını tefsir etmeye çalıştığını görüyoruz. Bu yöntemin okumaları, sonuçları itibarıyla Kur'an-ı Kerim'i ve onu indirenin kutsiyetini hesaba katarak onun amacını ve en önemli hedeflerini gözetleyen makasid tefsiri yönteminden farklıdır. Sözün sahibine ve amacına hiç yönelmeyen Semiyoloji, makasid yöntemi gibi değildir. Aksine o, şekillerle ve sembollerle meşgul olur. Semiyoloji yöntemi, tefsir alanında bize yeni bir şey sunuyor mu? Bahçe sahipleri kıssasını semiyoloji yöntemiyle ele almış bir çalışma bağlamında bu soruya cevap, çalışmanın ana konusunu teşkil edecektir .

**Anahtar Kelimeler:** Yöntem, Semiyoloji, Makasid, Bahçe Sahiplerinin Kıssası, Tefsir

### المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وبعد: فإن مناهج النقد الحديثة التي ولدت في الغرب، وترعرعت بين أحضان النصوص البشرية قد انتقلت إلى العالم الإسلامي من خلال عدة طرق، منها: حركة الترجمة التي تمت في العصر الحديث، وكذلك الطلبة والباحثين المسلمين الذين درسوا هناك، إضافة إلى هجرة بعضهم والاستقرار في الغرب. وهناك رأوا الحضارة المادية فاقتنوا بها وتمنوا لو أن بلادهم أيضاً تشهد مثل هذه الحركة، ثم أعادوا السبب إلى الفهم الكلاسيكي للقرآن الكريم، وأنهم لن يصلوا إلى ما وصل إليه الغرب إلا باستيراد مناهجهم، وتطبيقها على القرآن الكريم أسوةً بتطبيق الغرب على الإنجيل. ومن هذه المناهج التي أرادوا تفسير القرآن من خلالها: السيميائية؛ التي جعلت كل اهتمامها في دراسة النص حول الرموز والإشارات الموجودة في النص، متجاهلين طبيعة النص القرآني، وقصد المؤلف، وهو الله سبحانه. إننا - مع القرآن الكريم - لا نستطيع إغفال كل هذا؛ فنحن أمام نص مقدس، منزل من رب العالمين، وهو الخطاب الأخير للبشرية، لذا جاءت آياته كلها متضمنة لأسمى المعاني والمقاصد التي تحتاج إلى تدبير مستمر وتفكر دائم كي نصل إليها ونقف عندها. وقد شهدت السنوات الأخيرة ولادة أبحاث كثيرة في جامعات العالم الإسلامي، لا سيما كليات الآداب، كانت القصة القرآنية محوراً من خلالها دراستها سيميائياً، وكانت السمة العامة على تلك الأبحاث هي محاولة الجمع بين المنهج الإسلامي العلمي القائم على النظرة النقدية لله ولكتابه، ومن خلال المأثور من الروايات، وبين المنهج السيميائي، لكنه لم يكن تزاوجاً عادلاً موقفاً، بل كان للسيميائية الحصة الكبرى في تلك القسمة، من خلال شغلها للمساحة الأكبر في الدراسة. إن الخطأ المنهجي الذي يقع فيه الباحثون - في مثل هذه الدراسات - هو محاولتهم إخضاع القرآن الكريم لمناهج النقد الحديثة المعاصرة التي لم تكن إسلامية الولادة والمنشأ، ولذا تراهم يتكلمون كثيراً عندما يحاولون إسقاط تلك الإجراءات على الخطاب الإلهي، وفي الوقت نفسه يستعجبون - أحياناً - بالتفسير الإسلامية التي انتهجت المناهج الصحيحة، في محاولة تسويقية دعائية لما يريدونه، لكنه لا يثمر أي نتائج إيجابية، فضلاً عن عدم العثور على

جديد يضاف للتفسير المتقدم. وهذه حقيقة البحث الذي بين يدينا، فقد كانت عودة الباحث إلى التفسير المعتمدة عبارة عن ذكر لبعض المقاصد من القصة من بعض التفسير المتأخرة التي اهتمت بالمقاصد، وفي مقدمتها تفسير سيد قطب. ثم كانت الصفحات الكثيرة المليئة بالرسوم والرموز والإشارات والصور ذوات الأشكال الهندسية من مربعات ومثلثات ودوائر، إلى جانب المعادلات الرياضية والمنطقية، مروراً بدلالات الاستخدام اللغوي، مما جعل كل ذلك على حساب المقاصد الرئيسية التي أرادها الله سبحانه وتعالى من ذكر القصة وتخليدها إلى أبد الدهر، فضلاً عن استخدام المصطلحات الغريبة عن الثقافة الإسلامية، وإطلاق بعض الألفاظ غير المألوفة على المقدمات؛ بسبب التكلف في محاولة إسقاط المنهج السيميائي على القرآن الكريم. إن طبيعة القرآن الكريم ذو خصوصية مفارقة للأعمال البشرية من لغة وأدب وشعر. إنه رباني المصدر إعجازي السرد، فهو الذي يفرض على قارئه المنهجية الصحيحة، وليس العكس. إننا لا نوافق من يدعو إلى دراسة الكتاب العزيز من خلال مناهج ولدت في بيئة قامت بفكرة اغتيال الإنسان، كما دعا إليها فوكو، وفكرة موت المؤلف، كما دعا إليها بارت، وبصرخة عالية يعلن موت الإله، كما فعلها نيتشة. إلى جانب الاضطراب الذي يعيشه أبناء تلك البيئة من تبني لمنهج إلى انقلاب عليه، كما فعلوا مع البنيوية، التي قامت على أنقاضها التفكيكية، أو مع الحداثة التي أجهزت عليها ما بعد الحداثة.

لذا كانت دراستي هذه في سبيل بيان أحد هذه المناهج – السيميائية – ، بما لها وما عليها، من خلال قصة صاحب الجنين، كما وردت في سورة الكهف، ومن خلال مقارنته بالمنهج المقاصدي . كل ذلك من خلال انتهاج أكثر من منهج؛

فاتبعت المنهج الوصفي الذي تمثل بالعودة إلى جذور هذا المنهج وتعريفه. ثم المنهج التاريخي الذي يسرد مسيرته، ثم التحليلي الذي تتبعه الباحث الذي كان قصة صاحب الجنين محور دراسته، من خلال مقدمته، وفصوله ومباحثه، إلى نتائجها، ثم كان المنهج الاستقرائي الذي خرج بعد ذلك بنتائج تعكس تلك الدراسة، وأخيراً المنهج المقارن، الذي قارن بين المنهج السيميائي والمنهج المقاصدي، الذي كان الغاية الحقيقية من تخليد رب العالمين لهذه القصة، من خلال الحوار الذي دار بين الأخوين. هذا المنهج – المقاصدي- الذي غاب أو كاد عن الباحث، بل جعل جل اهتمامه بالسيميائية وإجراءاتها وآلياتها وأدواتها.

وقد أدت هذه الدراسة من خلال مقدمة، وفصلين، الأول: السيميائية ؛ تعريفها، وأسسها، وخصائصها، وخطواتها، واتجاهاتها، وأخيراً السيميائية والخطاب القرآني.

وأما الفصل الثاني: ف في قصة صاحب الجنين بين المنهج السيميائي والمقاصدي، وذلك من خلال عرض أبرز ما جاء عند الباحث، والذي فسّر القصة من خلال إجراءات المنهج السيميائي، والتي تتمثل في: البنية السردية، والمستوى السطحي، والمكان والزمان، والأدوار العاملة، والبنية العميقة، والمربعات السيميائية. ثم الرد والتعقيب عليه، وأخيراً بيان جمال القصة من خلال المنهج المقاصدي، الذي اهتم به المفسرون، والتي تفيض بالقيم والمعاني السامية، من عقديّة وأخلاقية نفسية. ثم كانت الخاتمة، وقد دونت أهم ما توصلت إليه من نتائج، وسجلت بعض التوصيات التي كانت تجول في صدري وأنا أعالج هذا الموضوع.

#### المبحث الأول: تعريف السيميائية:

أولاً: لغةً: السيميائية والسيميائية والسؤمة والسؤمة مشتقة من أصل واحد هو سَوَمَ، والأصل في السيم: وسم يسم؛ حيث الواو فاء الكلمة ثم أبدلت فكانت عينها، ولما كانت ساكنة وما قبلها مكسور قلبت ياءً فأصبحت سيميم. " و الوَسْمُ هو العلامة؛ وسوم الفرس: جعل عليه السيمة ( ابن منظور، 1697: 722/23 ، الأزهرى: 112/13). وقال الجوهرى: "السؤمة بالضم العلامة، تجعل على الشاة وفي الحرب أيضاً" (الجوهرى، 1987: 1955/5).

وقد وردت اللفظة في القرآن الكريم غير مرة، من مثل قوله تعالى: (( محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود...)) [الفتح: 29/48]، ومعناه العلامة (الراغب الأصفهاني، 1412: 438/1). وقال سبحانه وتعالى: (( يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً...)) [البقرة: 273]، أي: تعرفهم من خلال العلامات التي ترسم على محياهم وهيئتهم. وقوله تعالى (( مسومةً عند ربك )) [هود: 83/11]، أي: معلمة مختومة عليها أسماء أصحابها، كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه. ( ابن كثير، 1999: 340/4)، هذا مفهوم السيميائية، من حيث اللغة في المعاجم، وفي القرآن الكريم.

#### السيميائية اصطلاحاً:

جاء في بعض المعاجم العربية تعريفاً للسيميائية، لكنه بخلاف ما عند المناهج الغربية اليوم، حيث اقترن هذا المصطلح بعدد من العلماء، منهم جابر بن حيان ( ت 200 هـ) الذي عمل على تحقيق خيال علمي، لكن أدواته لم تساعده، مثل فكرة تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة، ولما لم يستطع تحقيق ما أراده تحول علم الكيمياء عنده إلى ما عُرف بعلم ( السيميائية). وكان مفهوماً قريباً إلى فن السحر، يقول صاحب كتاب أجد العلوم: "السيميائية اسم لما هو غير حقيقي من السحر. . . وسيميائية لفظ عبراني معرب أصله ( سيم به)" (القنوجي، 1978: 392)، ويقول التهانوي: "إن السيميائية هي علم تسخير الجن" (التهانوي، 1996: 999) أما المعاجم الأجنبية فقد فرقت بين مصطلحين: الكيمياء وهي العلم المعروف (Chemistry) وعلم آخر (Alchemy) وهو يرمز إلى ما كان يسمى عند العرب بعلم السيميائية، وهو علم كيمياء القرون الوسطى. وربما سموه ( الخيميائية) لقرب اللفظتين، لفظاً ومعنى. (جبران ، 1988: 7) وربما كانت تحريفاً للفظ العربي (السيميائية)، لاسيما وقد احتفظت بـ ( أل) التعريف التي لازمت المصطلح دلالة على أصوله العربية. ويرى بعض العلماء أن لفظ السيميائية تعريب لـ (السيميوطيقا) من كلمة السيميولوجيا) والتي تعني: العلامة.

ولما كانت السيميائية هل العلامات، فإن السيميائية التي نشأت بإضافة اللاحقة (ية) إلى الاسم إنما تعني العلاماتية، فصارت على هيئة المصدر الصناعي الدال بصورته الاشتقاقية على الإطار النظري العام الذي ينتزل فيه علم العلامات (الحواني، 2005: 53) ولا تكاد تجد كتاباً مختصاً بالسيميائيات إلا ويعرفها بأنها السيميولوجيا أو السيميوطيقا، وكلاهما من الجذر اليوناني السيميون ( semeion) أي العلامة والإشارة (الحواني، 24).

والحق أن المصطلح اختلف فيه في العصر الحديث، وكانت هناك تعاريف متباينة (السرغيني، 1987: 5-6) شأن بقية المصطلحات التي عنيبت بالنقد، فبباز غيرو يعرف السيميائية بأنها: "العلم الذي يهتم بدراسة أنظمة العلامات: اللغات، وأنظمة الإشارات والتعليمات. . ." (المرتجى، 1987: 23)، ونرى أن تعريفه هذا يدخل اللغة تحت مفهوم السيميوطيقا، وهو الفهم الجديد لعلم السيميائية الذي يعود الفضل فيه إلى العالم الشهير فيردنان دي سوسير الذي يعرفها بأنها: "العلم الذي يدرس حياة العلامات من داخل الحياة الاجتماعية، ونستطيع إذن أن نتصور علماً يدرس حياة الرموز

والدلالات المتداولة في الوسط المجتمعي، وهذا العلم يشكل جزءاً من علم النفس العام. ونطلق عليه مصطلح علم الدلالة (السيمولوجيا) وهو علم يفيدنا موضوعه الجهة التي تقتضيه الدلالات والمعاني. وما دام هذا العلم لم يوجد بعد فلا نستطيع أن نتنبأ بمسيره، غير أننا نصرح بأن له الحق في الوجود. وقد تحدد موضوعه بصفة قبلية. وليس علم اللسان إلا جزءاً من هذا العلم وسيبين لنا هذا العلم ما هو مضمون الإشارات، وأي قوانين تتحكم فيها" (بنكراد، 2012: 9) ثم توالى التعريفات بعد ذلك فعرّفها مارتينييه بقوله: "دراسة السلوكيات والأنظمة التواصلية بانتاج الإشارات أو العلامات واستعمالها" (دفة، 2003: 22)، وأما مترجم كتاب (السيمياء والتأويل) لـ روبرت شولز فيعرّفها بقوله: "دراسة الشفرات والأنظمة التي يمكن الكائنات البشرية من فهم بعض الأحداث أو الوحدات بوصفها علامات تحمل معنى" (الحواني: 25) إذن: هو علم يدرس العلامة ومنظوماتها (أي اللغات الطبيعية والاصطناعية) كما يدرس الخصائص التي تمتاز بها علاقة العلامة بمدلولاتها. أي تدرس علاقات العلامات والقواعد التي تربطها أيضاً. وهذا التعريف يدخل تحته عدد من العلوم مثل الجبر والمنطق والعروض والرياضيات... وهذا شبيه بما صنع العرب حين خلطوا السيمياء بالسكر. وزبدة الكلام أن عدة كتابات ومعاجم لغوية وسيمائية تُجمع على أن السيميائيات علم يُعنى بدراسة العلامات. وهو تعريف كل من: فرديناند دوسوسير كما سبق - وجورج مونان، وكريستيان ميتر، وتزفيتان تودوروف، ورولان بارث وغيرهم (مبارك، 2017: 37). وكثير من الباحثين لا يجد فرقا بين السيمولوجيا - السيمياء - والسيميوطيقا، فالأولى مصطلح الفرنسيين والثانية مصطلح الأمريكيين، فكلاهما أسام لمسمى واحد. لكن آخرين ذهبوا إلى أن ثمة فرقا بينهما، فالسيمولوجيا علم يدرس العلامات وأنساقها داخل المجتمع والسيميوطيقا: هي النظرية العامة للعلامات والأنظمة الدلالية اللسانية وغير اللسانية، وكذلك يعنى السيمولوجيا بدراسة اللغة من زاوية الدلالة. ويذهب شارلز ساندرس بيرس إلى أن السيميوطيقا نظرية شبه ضرورية أو شكلية، للعلامات" (أمعشوشو: موقع شبكة اللغة والأدب)، ونلاحظ - في النهاية - أننا أصبحنا أمام ثلاثة آراء، رأي يعتبر السيمياء علماً، وثان يجعلها منهاجاً، وثالث يتخذها نظرية عامة.

### ثانياً: أسس المنهج السيميائي

يتقاطع المنهج السيميائي مع كثير من الحقول المعرفية كالبلغة والمنطق والنقد والفنون البصرية وفلسفة اللغة والنسق اللساني على مستوى تأويل الدلالات وإمكانات التأويل، فالسيمائية لا تمثل حقلاً معرفياً خالصاً واحداً بل هي ملكية مشاع لمجموعة مجالات، كالفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع والانتروبولوجيا.

**موضوعها:** دراسة أنظمة العلامات اللغوية والإشارية. إذن فالدراسة السيميائية للنص الأدبي ما هي إلا دراسة تغوص في أعماقه وتستكشف مدلولاته المحتملة مع محاولة ربط النص بالواقع المعاش؛ وما يمكن الاستفادة وأخذ العبر منه. تنطلق السيميائية في تحليلها للنص الأدبي من اعتبار النص يحتوي على بنية ظاهرة وبنية عميقة، يجب تحليلهما وبيان ما بينهما من علائق. وقد قرر دي سوسير اعتبارية العلامة اللغوية، أي العلاقة بين الدال والمدلول ليست تعليلية أو طبيعية، بل تواضعية أو وضعية، والقول باعتبارية العلامة يمنح الدوال مدلولات لا نهائية، بخلاف القلة القليلة التي قالت بأنها طبيعية لا اعتبارية (فاخوري: 24).

**خصائصها:** يقوم المنهج السيميائي على جملة من الخصائص، تتمثل في:

**1 - المحايثة:** والمقصود به أن النص لا ينظر إليه إلا في ذاته مفصلاً عن أي شيء يوجد خارجه. . . والمحاثة عزل النص والتخلص من كل السياقات المحيطة به (الحواني: 107) فهو يركز على النص من حيث هو؛ أي بيان شبكة العلاقات القائمة بين عناصر الدال من حروف وكلمات وعبارات، رافضاً أن يكون للعوامل الخارجية أي علاقة بالنص (أمعشوشو: موقع شبكة اللغة والأدب)، وعليه "فالتحليل السيميائي يقتصر على دراسة الأشكال الداخلية لدلالة النص أو التفضلات المشكلة لعالمه الدلالي المصغر" (الحواني: 107).

**2 - البنيوية:** تأثر الكثير من السيميائيين بالفكر البنوي وبآرائهم مثل أجرداس غريماس، يظهر ذلك من خلال استعمالهم للمصطلحات البنيوية من مثل: البنية، والمستوى السطحي، والمستوى العميق، والنسق، والعلاقات، . . . لذا ذهب صاحباً " دليل الناقد الأدبي" إلى أن: "التحليل السيمولوجي تبني الإجراءات والمنهجية البنيوية التي أرساها سوسير" (المسدي، 1994: 6). فالبنوية لا تهتم بأجزاء الظاهرة المدروسة في ذاتها، كما هو شأن التفكيكية، وإنما بالعلاقات القائمة فيما بينها، بما يشكل التناسق والترابط بالمفهوم الكلي. وهذا هو شأن السيميائية.

**3- التأويلية:** تقوم السيمياء على مبدأ التأويل، حيث يرتبط بالدلالة وشروط وجودها وأشكال تحققها ارتباطاً شديداً، فجوهر التأويل هو تعدد الدلالة (بنكراد: 266). وتأتي أهمية التأويل في أن المؤول - وهو أحد عناصر العلامة السيميائية- هو الذي يتحكم بنوع الدلالة ومستوى تعددها، فضلاً عن لا نهائية المعنى في السيمياء وهي مجال التأويل الأوسع والأبرز.

**ثالثاً: خطوات التحليل السيميائي:** يمر التحليل السيميائي من خلال خطوات متتالية، تتمثل في:

**1 - المستوى الخطابي:** يحاول المحلل السيميائي هنا كشف وجود علاقات بنائية لعناصر النص الداخلية، من خلال ترتيب صورته وفق مسارات يحدد فيها التفضيل الخصوصي القيم الموضوعاتية. وترتيب الصور ثلاثة أقطاب؛ الممثلون، الأزمنة، الأمكنة (بارت، 2003: 111)، وانطلاقاً من الصور والمسارات الصورية الملاحظة يتم بناء القيم الموضوعاتية (أرفيه، 1990: 113).

**2 - المستوى السردي:** وهذا المستوى أكثر تجريباً من المستوى الخطابي إذ يسعى إلى إعطاء شكل لانتشار الوضعيات والأحداث والحالات والتحويلات في الخطاب" (أرفيه: 113) ويتعمق التحليل السيميائي هنا في داخل النص بحيث يتعامل مع نظام الإنتاج في داخله، محاولاً إرساء القواعد والضوابط التي تتحكم في هذا النظام (الحواني: 31).

ويتم أيضاً تنظيم للملفوظات تنظيمياً ينبنى على أربعة أطوار مرتبطة فيما بينها ارتباطاً منطقياً، وهي: التحريك، والكفاءة، والأداء، والتقييم، وتقوم بين هذه الأطوار علاقات بين الأدوار. والمعنى أن أحد العناصر يحرك عناصر آخر للقيام بفعل آخر، ويسمى الأول بالفاعل المنفذ، ويكون فاعلاً رئيسياً وحيوياً في إدارة العناصر نحو إنتاج الدلالة، وقد يكون هناك فاعلون ثانويون... (أرفيه، ص114).

**3 - المستوى المنطقي:** وهنا تستعين السيميائية بالمنطق في كشف العلاقات الثنائية بين العناصر الداخلية للمكون الخطابي، فلا زال المحلل يتغلغل حتى يقف على العناصر الأساسية للمجردة التي تقوم بينها علاقات ما بين الفاعلين والمستقبلين والموضوعات المرسله، هذه العلاقات التي يمثلها التضمن والتضاد والتناقض، الذي سعى غريماس من خلال مربعه السيميائي إلى تعقيد التحليل السيميائي من خلالها (يوسف: 21). إذن التحليل السيميائي يعتمد في خطواته التحليلية على منطق أرسطو القائم على نظرية التقابلات، والتي جسمها في المربع المنطقي القائم على أربعة عناصر هي: الثابت والمتحول، واللاثابت واللامتحول، بما ينشأ بينها من علاقات تضمن وتناقض وتضاد، إلا أن السيميائيين غيروا هذا المصطلح

وسمى المربع السيميائي (مفتاح، 2007: 155). إن الحديث عن خطوات التحليل السيميائي يطول، من خلال الاختلافات فيما بين أقطابها، إضافة إلى تفرعات كثيرة وتشعبات جزئية، حاولت قدر الاستطاعة أن أسجل أهم عناصرها، وسوف نرى مثل هذه المصطلحات أثناء دراسة قصة صاحب الجنين من المنظور السيميائي.

#### رابعاً: اتجاهات السيميائية:

- أ – سيمياء التواصل: وأهم أقطابها: جورج موان، وبريتو، وبوسنس، ومارتينيه. ويقوم هذا الاتجاه على أن وظيفة اللسان الأساسية التواصل.
- ب – سيمياء الدلالة: وأهم روادها: رولان بارت، حيث يرى أن البحث السيميائي هو دراسة الأنظمة الدالة، وذلك من خلال التركيز على الثنائيات اللسانية؛ اللغة / الكلام، الدال/ المدلول، التقرير / الإيحاء.
- ج – سيمياء الثقافة: وروادها: أميرتوايكو، وجوليا كريستيفا. ويستفيد من الفلسفة الماركسية، ويعتبر الظواهر الثقافية موضوعات تواصلية وأنساقاً دلالية (رضوان و عباس، 2017: ع33: 801).

**خامساً: السيميائية والخطاب القرآني:** من المعلوم أن السيمياء كمنهج نقدي تحليلي ظهر في أوروبا وكان الأدب والأعمال الإنسانية عموماً هو ساحته وميدانه الذي يجول فيه، ويمشي في رحابه، وقد ظهر هذا المصطلح في العالم العربي في ثمانينات القرن الماضي، من خلال حركة الترجمة والطلبية الموفدين، حيث تتلمذوا على يد أساتذة السيميولوجيا في الغرب (حمدوي، 1997). وهذا يعني أن ادعاء صلاحيتها على النص القرآني أسوة ببقية النصوص ادعاء غير مدروس من حيث الآليات والنتائج، صحيح أننا نرى إشارات عند بعض المفسرين، ونرى تعمقاً إلى داخل بنية الكلمة، لكننا لا نرى شياً بين دراسة المفسرين وبين الدراسات السيميائية في العصر الحديث؛ لأن السيمياء بمفهومه الحالي لم يكن قد ولد بعد. فالزمخشري كان يحاول أن يتعمق في معالجه للكلمة - أو فك شفرته إن صح التعبير - ولعل خلفيته الاعتزالية كانت تدفعه أحياناً فعند قوله تعالى (( حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى )) [البقرة: 238/2] ذهب إلى أن المقصود بالصلوة الوسطى كل الصلوات؛ انطلاقاً من أن كل صلاة من الممكن أن تكون هي الوسطى فالفجر وسطى بين العشاء والظهر، والظهر وسطى بين الفجر والعصر، والعصر وسطى بين الظهر والمغرب، والمغرب وسطى بين العشاء والعشاء، والعشاء وسطى بين المغرب والفجر. وهذا لا يعني أنه رفض ما ذهب إليه غيره في المراد بها. ولعله - هذا النوع - كان أكثر حضوراً عند أهل التصوف، فابن عربي أسس لأول مرة ثلاثية (الصوت) و (التركيب) و (الدلالة) في تفسيره، فهذه المحاور الثلاثة كانت الخطاب التفسيري الأول للفكر التأويلي المعتمد في الخطاب القرآني (الدجيلي: 9) ومن أمثلة ذلك تفسيره للحروف المقطعة في أوائل السور، فقد أشار بأن (الم) معناها كثرة هذه الحروف في السور التي افتتحتها هذه الحروف، وكذلك (الر)، وكذلك (كهيعص)... الخ... وعندما وجد أن (الم) هي أكثر الحروف المقطعة استنتج أنها وردت بكثرة في كل القرآن الكريم، كما أن (الألف) يقابل المد الصافي، وهذا صالح لجر النفس العميق والدلالات الصافية، و (اللام) صالح للشدة، ومع اللين جاء أكثر حرف في القرآن الكريم، و (الميم) يدل على شدة الشفة، وهذه فيها كل الدلالات اللغوية المؤثرة (الحاتمي: 98/1) فضلاً عن أن كل سورة لها حرف يزيد على غيره، وهذا يتلاءم مع طقسها الدلالي الظاهر، والعميق بالنسبة للموضوع القرآني، وبالنسبة للمتلقي في أن معاً (الحاتمي: 99-100)، وأما الرازي فقد خاض في هذا المجال، وهو الذي يؤمن أنه مادام القرآن صالح لكل زمان ومكان، فإن التركيب القرآني واسع الدلالة ليس على مستوى الزمن الذي ولد فيه لكن على مستوى الزمن بمستواه الفيزيائي، والنفسي، والإلهي معاً، فعند قوله تعالى (( وما تلك بيمينك يا موسى. قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى )) [طه: 17/20-18] وقف الرازي عند هذه (العصا) وعدها أداة مهمة لتحقيق أكثر من نتيجة، ولأن موسى عليه السلام نبياً فقد أظهر الأشياء العامة للعصا، وأخفى الخاصة، فقد قدم وظيفة العصا العامة (لا تكاء)، وخصص أكثر ب (أهش)، ثم رمز إلى الخاص جداً (ولي فيها مآرب أخرى)، وأولى هذه المآرب هي القوة، والجمال، وهذه الروافد العضوية ما قبل النبوة أي حينما كانت العصا مادية، لكن بعد النبوة دخلت الروحية إليها فكانت أداة للنبوة (الرازي، 1420: 24/22 وما بعدها). ولعلنا قد أحطنا خبراً - بعد هذه الأمثلة - عن قيمة اللفظ القرآني عند المفسرين السابقين، بمختلف مناهجهم ومشاربهم (معترلة، أهل التصوف، أشاعرة)، ورأينا أنهم كانوا يقفون أحياناً عند بعض الكلمات ويأخذون نفساً طويلاً ليعالجوها من خلال وجوه كثيرة، وربما تتقاطع أحياناً مع بعض جوانب السيمياء، لكنه لم يكن يُعرف باسم السيمياء، بل كان هناك التدبر، والتأويل، والإشارة أحياناً، فضلاً عن عدم وجود قواسم مشتركة مع السيميائية التي انتهجتها الدراسات الحديثة. إن هدف التحليل السيميائية - كما يؤكد محمد أركون بقوله - "يجبر الدارس على ممارسة تمرين من النقش والنقاء العقلي لا بد منه" (أركون، 1996: ص32) وبعبارة أدق: "التحليل الألسني السيميائي الدلالي يساعدنا على إقامة مسافة بيننا وبين العقائد الإيمانية الموروثة" (أركون، 1996: 33) إذن المطلوب هو تحييد واستبعاد المنطلقات الأيديولوجية سواء بالنسبة إلى قراءة المفسرين القدماء أو بالنسبة إلى المستشرقين، وذلك لأن طبيعة المادة المدروسة (الخطاب القرآني) في شكلها اللغوي المادي تفرض علينا تجاوز التراث التفسيري والكم التراكمي للقراءات عبر التاريخ مهما تعددت اتجاهاتها، والعودة مباشرة إلى النص.

#### الفصل الثاني: سيميائية الأمثال في الخطاب القرآني (قصة صاحب الجنين) من خلال دراسة الباحث<sup>1</sup>:

المقصود بالقصة الآيات التي وردت في شأن رجلين أحدهما غني، وهو صاحب الجنين والآخر فقير وهو مؤمن، ثم جرى حوار بينهما، والآيات جاءت في سورة الكهف وهي قوله تعالى " ((واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنيناً من أعناب وحققناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً. كلنا الجنين أتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نهرأ. وكان له ثمرٌ فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً. ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً. قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من ترابٍ ثم من تطفةٍ ثم سواك رجلاً. لئنأ هو الله ربي ولا أشركت بربي أحداً. ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً فعسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنك و يرسل عليها حساباً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً. وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشركت بربي أحداً. ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً. هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقاباً )) [الكهف: 32/18 - 44].

<sup>1</sup> - هذا هو عنوان البحث (سيميائية الأمثال في الخطاب القرآني)، للباحث عمر عليوي، وقد حصل من خلالها على درجة الدكتوراه في قسم الآداب، من جامعة محمد بوضياف، الجزائر (1996). والباحث لم يكتب دراسة قصة صاحب الجنين، بل أرفقها بقصة أهل القرية، التي وردت في سورة (يس) وقد اكتفيت بالوقوف على الأولى؛ لأن هدفي من دراستي النقدية الوقوف على المنهج السيميائي في تفسير القرآن الكريم، فضلاً عن أن الباحث قد جمع في الخاتمة نتائج لدراسة القصتين.

ما جاء في البحث: ليس من العدل ولا المنطق أن نحاول إخضاع كلام رب العالمين لمنهج قد ولد قبل سنوات قليلة، وفي بيئته بعيدة عن بيئته؛ فالقرآن الكريم والذي نزل قبل ألف وأربعمائة سنة هو رباني المصدر، إعجازي السرد، ذو طبيعة خاصة وله لغته الخاصة ونظامه الذي لا يشبه نظام البشر. لذا سوف نرى عملاً مضطرباً، ومحاولات بانسة في سبيل الوصول إلى نتائج معينة، كيف وقد جاء في مبادئ السيميائية وخصائصها ما يسمى بالتفكيكية، وبلا نهائية المعنى، والقرآن الكريم يحتم على المفسر أن ينظر إلى موضوعاته نظرة عامة يربط أوله بأخره، وأخره بأوله، وكأنه بنيان واحد، ويفرض خصوصياته من كونه معجزاً غير قابل لإخضاعه لنظريات بشرية قد يطويها الزمن بعد فترة. والسيميائية تفرض على العمل الأدبي توفر عناصر معينة:

- فهي تقف عند عنوان العمل الأدبي كثيراً، وتسميها سيميائية العنوان. وتقف على أسماء الشخصيات؛ فإلاسم دوره الكبير، وتسميه سيميائية الأسماء. وكذلك الزمان والمكان، وكذلك الصور. ووظائف السردية للشخصيات؛ والمقصود بذلك: ما تمثله هذه الشخصية و من شخصيات لها ملامحها الخاصة في المجتمع. وكذلك سيميائية البناء الخارجي للشخصيات؛ وهي الملامح الخارجية لهذه الشخصية، من مثل: شكل الوجه وحجمه، شكل العينين ولونهما، شكل الأنف، العنق، لباسه، مشيته...، وسيميائية الملامح الداخلية للشخصيات؛ أي الصفات النفسية والعقلية والفكرية والاجتماعية والخلفية والعقائدية التي تتمتع بها الشخصية في النص نفسه، مثل: الانطواء، والعصبية، والغيرة، والذكاء والسخاء... وانطلاقاً من هذه القواعد والإجراءات قام الباحث بدراسة القصة؛ يوضح الباحث - في مقدمته - كيف تناول قصة صاحب الجنتين قائلاً: "... طبقت فيها المنهج السيميائي، تتبع المقاطع النصية الأساسية للمثل القصصي، وحددت الحالات والتحويلات داخل كل مقطع اتصالاً وانفصالاً، وذلك في علاقتها بعواملها وفواعلها، ثم انتقلت إلى المستوى السطحي الذي يعني بدراسة البرامج السردية والمسارات التصويرية، من مكان وزمان وشخصيات، متناولاً الأدوار العاملة والموضوعات، ثم انتقلت إلى المستوى العميق من أجل استقراء القيم الدلالية والسيميولوجية، ودراسة المربع السيميائي. محاولاً الإجابة عن التساؤلات الواردة سابقاً، التي مفادها: كيف يبني المعنى في النصوص والخطابات؟ وكيف يشيد المعنى سيميائياً ودلالياً؟ وما هي الخطوات والمراحل التي يجتازها بناء المعنى من مستوى السطح (السرد) إلى مستوى العمق (المنطق). ولقد قرأت البحث غير مرة، أسجل في كل مرة ملامح منهجيته وماذا قال، وكذلك عباراته التي استعملها. ومصطلحاته التي اعتمدها، فوجدت أنه: قد عالج القصة سيميائياً من منطلق أنها مثل كما قال -، وقد قدم دراسته بتعريف بالمثل، وحكم ضربها للناس، والباحث ينطلق في التعريف بالمثل والقصة القرآنية من منطلق صحيح يتقيد ضمن الخط العام الذي يسير عليه العلماء المسلمون بمختلف مشاربهم ومناهجهم، بل نراه يستشهد بما قاله علماءنا في أن القصة القرآنية ليست عملاً فنياً مقصوداً لذاته، وإنما هي وسيلة للإرشاد والإيمان والعظة (عليوي، 2017: 50) وليس الكلام على تعريفه للمثل، ولا الغاية من ضرب الأمثال، لكننا سنقف عند الجاب السيميائي في دراسته. يقسم الباحث القصة إلى أرقام حسب الترتيب السيميائي وخطواته التحليلية، فيبدأ بقوله: أولاً،... (وهنا يكتفي بذكر الآيات التي ذكرت قصة صاحب الجنتين).

ثانياً - البنية السردية: يذكر الباحث أن البنية السردية لهذه القصة تتمثل في رجلين الأول غني والأخر فقير، لكنهما مختلفا الطباع. . . والسارد هو الله سبحانه وتعالى، فلا نجد الشخصيات تتدخل فيها إلا على مستوى الحوار. ثم يقسم الباحث هذا المثل القصصي - سردياً - إلى ثلاثة مقاطع رئيسة محددة في ثلاث وضعيات مختلفة: 1 - الوضعية الافتتاحية 2- المقطع الأول: الحوار بين الكفر والإيمان 3- الوضعية الختامية : خراب الجنتين. والباحث يأتي -غالبا- برموز وإشارات على أقواله، ففي المقطع الأول يرى الباحث وضعية مستقرة تسودها علاقات الاتصال والانفصال. وأما عن الوضعية الختامية فإنه يذكر المقطع التالي من القصة، وهو قوله تعالى (( وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه... ))، ثم يعقب ذلك برسم معادلة من خلال علاقيتين، الأولى والثانية، على الشكل التالي:

العلاقة الأولى: (ف ∪ م) صاحب الجنتين ∪ م الجنتين. ( خراب الجنتين )

العلاقة الثانية: (ف ∩ م) الرجل الثاني ∩ عدم الشرك بالله .

وبما أن " ملفوظ الحالة يتمثل في العلاقة (اتصال أو انفصال) لذات حالة مع موضوع قيمى " (3) فقد حقق صاحب الجنتين وكذا صاحبه هذه المعادلة التحويلية باعتباره ذات حالة ، وذلك عبر التحويل التالي:

ت (ف1) ← (ف1 ∪ م ج) ← (ف1 ∩ م ج)

ت (ف2) ← (ف1 ∪ م ج) ← (ف1 ∩ م ج)

ف1 = صاحب الجنتين .

وسوف نراه يكثر من هذه الرموز والإشارات التي تتضمن معادلات معينة، بمقتضى قواعد المنهج السيميائي.

المستوى السطحي: ينتقل الباحث إلى المستوى السطحي، وذلك من خلال الذات مقابل الموضوع: ثم يعترف الباحث أنه من الصعوبة بمكان الكشف عن البنية العاملة لهذا المثل القصصي بسهولة، ولعل ذلك راجع - والقول للباحث دائما - إلى أن الله هو المنجز لأغلب الأفعال ومترقب الأحداث من بعيد، فهو من أعطى تلك الجنات والخيرات لذلك الرجل بينما جعل الآخر فقيراً. ثم ينتقل الباحث إلى هدف كل من الرجلين من خلال ترسيمتين، ويوضحهما على الشكل التالي:

الترسيمة الأولى: الرجل المؤمن: الرغبة ( رغبة المؤمن) = التحيين = الإيمان ثم الرضى بالقدر = النتيجة ( إيجابية).

الترسيمة الثاني: الرجل الغني: الرغبة ( رغبة الكافر) = التحيين = ( التكبر والغرور) = النتيجة ( سلبية).

**المكان:** يبحث الباحث عن المكان - مكان الجنين- في هذه القصة، لكنه لا يجده، لذا نراه يقرُّ هنا بقيمة المكان في القصة القرآنية، فهو ليس مهما بقدر ما هو مهم ما جرى فيه، لذا قد يكون أي بقعة في الأرض يصلح ميداناً للصراع بين الحق والباطل. والمكان هنا بعد أن يصبح موحشاً بعد غناء وجمال يدلنا على أن الحياة فانية.

**الزمان:** ويقف الباحث عند الأزمنة، فلزمن دلالاته ف" لو أخذنا في قصة صاحب الجنين ترتيب الأحداث

بعين الاعتبار سنجد أن التشكل القصصي لهذا المثل مرتين بالتشكل الزمني الكلي. ولأجل إيضاح هذا التشكل لا بد من استجلاء الوحدات السردية التي ينقسم إليها". ثم يرسم الباحث جدولاً ليوزع لنا الوحدات - الألفاظ القرآنية - بين ماضٍ وحاضر ومستقبل.

**الشخصيات:** يتحدث الباحث عن مفهومي الشخص والشخصية، فالشخص يقصد به الإنسان الفرد، كما هو في الواقع، وأما الشخصية في العمل القصصي فهي ليست ذلك الوجود الواقعي، بقدر ما هي مفهوم تخيلي تشير إليه التعبيرات المستعملة في القصة، للدلالة على شخص بكيونته المحسوسة الفاعلة (عليوي: 68) وقد ميز السيميائيون بين مستويين - كما يقول الباحث - الأول: مستوى عاملي، يهتم بالدور دون أن يهتم بمن يؤديه، والثاني: مستوى ممثلي، تكون فيه الشخصية على صورة فرد يقوم بدور ما في الحكى، وقد بين الباحث في النهاية إلى أن القرآن الكريم يعمد إلى محور التاريخ وأسماء الأماكن، وأسماء الأعلام، وذلك لنزع الصفة التاريخية عنها. . (عليوي: 70) لكنه لم يبين لنا في النهاية أي المنهجين في تقديم الشخصيات هو الأنفع والأجدى.

**المجال التصويري:** ينتقل الباحث إلى ما يسميه " المجال التصويري " فالمجال التصويري لصاحب الجنين تحده مجموعة من الوحدات السيميائية الدالة، ثم يوردها ويقوم بتحليلها، فمثلاً: الوحدات السيميائية الدالة ( أنا - أكثر منك - وأعز ) = ( الغرور والتكبر)، ثم يشرع في التحليل النفسي الكامن خلف هذه الوحدات - الكلمات- (عليوي: 70). وأما المجال التصويري للرجل الفقير، فهي بعكس الأول، فمثلاً: الوحدات السيميائية الدالة ((ربي - لا أشرك) تدل على " شخصية عابدة زاهدة وفيه لخالقها ممتلئة لأمرها، على عكس شخصيتك أيها المنكبر" (عليوي: 74).

**الأدوار العاملة:** ينتقل الباحث إلى ما يسميه الأدوار العاملة والموضوعاتية: فالعامل هو الشخصية في القصة، والموضوعاتية هي الغرضية خاصة وأنه على الدارس أن يرصد الأدوار الغرضية التي تتبناها شخصية وتضطلع بها حتى يحدد منها صفاتها ووظائفها على امتداد الخطاب السردى ويجلوها في كثافتها الدلالية، فتعيننا الأدوار التي تضطلع بها الشخصية على تحديد مركزها ودرجة أهميتها في الخطاب السردى. . . " (عليوي: 75) ومن خلال هذا التوصيف يجعل (الله سبحانه وتعالى) سارداً من الدرجة الأولى متصلاً بمسروده، لأنه يسرد هذه الأحداث على نبيه محمد أولاً وعلى كل قراء القرآن ثانياً، وهو مطلع على كل شيء عالم بكل ما حدث وسيحدث، فهو سارد كلي الحضور والمعرفة، غير خارج عن الأحداث، بل مشارك فيها باعتباره هو من أرسل الأنبياء، وتتجلى فاعلية ذات الجلالة من خلال عدة صور، عبر عنها بأفعال كثيرة، تمثل الأدوار الموضوعاتية لهذه الذات الفاعلة: ذات الجلالة (الله سبحانه وتعالى):

- سارد

- مرسل (من الدرجة الأولى)

- عالم

ثم ينتقل إلى شخصية محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فهو سارد من الدرجة الثانية. أما شخصية صاحب الجنين" لم ترق إلى الذات الفاعلة وإنما بقيت مراوحة لذات الحالة المعارضة لموضوع القيمة". وأما ذات الرجل الفقير فهي " ذات حالة، مساندة لموضوع القيمة، ومعارضة لشخصية صاحب الجنين" (عليوي: 77).

#### البنية العميقة والمربعات السيميائية:

ينتقل الباحث - كما يقول - في البنية العميقة إلى المنطق العميق الذي يحكم الدورة الدلالية. و" ينبغي في البدء تفكيك العناصر الدالة إلى الخطوط الأساسية الدنيا، فالبنية تتحدد بإدراكنا للخلافات التي تقوم على الأقل بين عنصرين من عناصرها يكونان حاضرين في أن وتربطهما علاقة بشكل أو بآخر، لأن العنصر في تفرده لا يؤدي معنى، ولا يملك قيمة دلالية. . . ومن خلال هذه العلاقة تتجلى الاختلافات بين العناصر، وهذا الفرق بينها هو الذي يولد المعنى" (عليوي: 80) ثم قسم الباحث هذه العلاقات إلى: التضاد، والتناقض، والتضمن. وقسمها - المربعات - باعتبار آخر إلى: العلاقات التدرجية، والعلاقات المقولانية، ثم أرفقها - المربعات السيميائية - بالثنائيات في العلاقة، من خلال:

- ثنائية الغني/ الفقير، ثنائية الكفر/ الإيمان، ثنائية التكبر/ التواضع، ثنائية الغرور/ الرضى. وضمن كل ثنائية هنالك تقاريع وتشعبات. وأما النتائج التي توصل إليها الباحث فنتلخص في أنه:

لم يكن في خاتمة ذلك الذي استغرق في السيميائيات، بل رأيناه يقر بما هو متفق عليه عند جميع العلماء من مثل أن المقصود بالمثل القصصي هو للاعتبار والعظات، وأن القرآن الكريم أغفل بعض التفاصيل التي لا تعطي قيمة ذاتية، لا سيما ما يتعلق بطبيعة الأشخاص الفيزيولوجية، فركز على أفعالهم وسلوكياتهم وصفاتهم ومواقفهم، وكذلك أغفل ذكر أسمائهم، وأسماء الأماكن التي كانت مسرح الأحداث، وكذلك الزمن الذي حدثت فيه القصة، قصة صاحب الجنين. ويقول: وأخيراً ما يمكن التقرير به أن كل إجراء من إجراءات السيميائية كشف لنا عن لبنة من لبنات المعنى، من السطح إلى العمق أو العكس من العمق إلى السطح. ويقول: "إن السيمياء نظرة وتطبيقاً تعد من أفضل المناهج تتبعاً للمعنى وكذا بناء فلسفته وهي قد تصلح للتحليل لكل النصوص والخطابات، حتى النصوص والخطابات المقدسة غير أنه لا يمكن التسليم أبداً بأن هذا العلم - المحدود - كافٍ لأن يصل إلى حقائق مطلقة في الخطاب القرآني. كما يجب أن أعتزف - والكلام له - أن هذا العمل يبقى عملاً ناقصاً، ولن يبلغ درجة الكمال وذلك لأسباب عديدة ومتعددة، منها ما يخص البحث في الخطاب القرآني، ومنها ما يخص البحث عن المعنى بالذات، فليس من السهل أبداً أن تقيض عن المعنى ولو تسلحت بإجراءات جميع المناهج الموجودة، فما بالك بإجراءات منهج واحد. وأخيراً يقرر أن السيمياء لا يمكن أبداً أن تكون هي أحسن بديل لكتب التفسير التراثية منها والحديثة، وإنما يمكن القول إنه حتماً ستضيف لهذه الكتب الشيء الكثير من منطلق أن الإجراءات التي تقدمها السيمياء إجراءات علمية مقبولة إلى حد ما. (انتهت خاتمتها).

**الرد والتعقيب:** تؤكد مرة أخرى أن السيميائية ظهرت في بيئة غير بيئة القرآن الكريم، بل كان محور دراساتها القصص الشعبية، وقد حظي القرآن الكريم منذ نزوله بدراسات كثيرة كلها تدور في فلك التقديس له وتقديس منزله سبحانه وتعالى، وهذا يعني أن الباحثين الذي توجهوا مؤخراً إلى القرآن الكريم، ولا سيما الجانب القصصي فيه، بغية تحليلها ودراستها سيميائياً، اضطروا مراراً أن يخطئوا بحق القرآن الكريم، وذلك من خلال محاولاتهم البائسة لإخضاع النص القرآني لأسس السيميائية وإجراءاتها ومصطلحاتها، التي نشأت ووجدت لدراسة الأعمال البشرية، وليس لدراسة كلام خالق البشر. سيظهر هذا من خلال الوقوف على هذه الدراسة وما جاء فيها. لقد قرأت في نتائجها صورة مهزوزة قلقاً، لم يستطع الباحث أن يوفق بين المنهج الإسلامي المعهود والسيميائي، ولم تعكس النتائج ما جاء في البحث من اهتمام بالسيميائية، واعتداد بدورها في تقديم الجديد في التفسير، فلم تكن هناك نتائج قوية تتم عن إيمان الباحث بها، بل رأيناها يقدم رجلاً ويؤخر أخرى؛ فتارة يصرح بأن هذه الإجراءات لم تخلق للنصوص المقدسة، وتارة يقول بأنها تصلح، وهي بلا شك - كما يقول - ستضيف شيئاً جديداً، ثم كانت النتيجة النهائية أن هذا المنهج لا يصلح بديلاً في دراسة القرآن الكريم. ولذا لن أبنى على نتائجها التي خلقت من العلمية والموضوعية، لكنني سأعود إلى محاوره التي تناول من خلالها قصة صاحب الجنين، وإجراءاته التي وظفها في سبيل ذلك، لأخرج أنا بنتائج تعكس عمل الباحث.

**البنية السردية:** حاول الباحث في هذه الفقرة الدمج بين قيمة القصة الفنية من المنظور الديني، من حيث العبر والعظات وبين المصطلحات السيميائية، وذلك من خلال استخدام كلمات غريبة في الحقل الإسلامي، والبناء عليها، وكأنها غدت محل إجماع بين المسلمين، فما الفائدة التي أضيفت إلى بيان كلام رب العالمين من خلال نعتة بـ ( السارد )؟ لقد بدأ الباحث بالخطأ عندما افترض وجود العناصر السيميائية في القصة القرآنية، أسوةً بوجودها في القصص الشعبية - التي قام عليها المنهج السيميائي - ومعلوم أن هناك سارد من الدرجة الأولى، ولما كان القاص هنا هو الله سبحانه وتعالى، أطلق البحث عليه صفة ( السارد )! ويتناسى هؤلاء الباحثون أن إسقاط الشخصية في القصة على الله سبحانه وتعالى هو خطأ في حقه سبحانه مرتين؛ مرة من جهة أن الله سبحانه خارج أحداث القصة كشخص له دوره المباشر في السرد، ومرة كونه لا يُصنّف كشخص من الأشخاص، مهما كان دوره في القصة. إن استبدال المصطلح الإسلامي المتعلق بالقرآن الكريم وعلومه له غاية خطيرة تتمثل في محاولة سحب البساط كلياً من الحقل الديني إلى الحقل الألسني النصي الحديث، من أجل إضفاء الشرعية على التحليل الألسني عموماً. ولا نرى الباحث إلا ضحية الوثوق بأمثال محمد أركون، صاحب القدر المعلى في هذا الجانب.

**المقاطع النصية الأساسية:** التقسيم الذي قسمه الباحث هي آلية بعيدة كل البعد عن المنهج الإسلامي، ناهيك عن الرموز التي استخدمها، ولو جعله قسامين لكان أفضل، حيث جعل القسم الأول عبارة عن " وضعية مستقرة تسودها علاقات الاتصال والانفصال، فالأول مُنح الجنين، والآخر لم يمنح. ثم جعل القسم الثاني عبارة عن المقطع الأول، وهو الحوار بين الكفر والإيمان، مبتدءاً بقوله تعالى (( قال ما أظن أن تنبئ هذه أبدا )) وبدا بقي جزء من الحوار خارج هذه المقاطع الثلاثة (( أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً. . . )) فعلى أي أساس يُترك هذا المقطع؟ إنه المبدأ السيميائي الذي يقول بتحديد ما هو ثانوي؟! وهل يصح أن نحيد مقطعا قرآنياً كي نحصل على أركان المنظور السيميائي؟ وجعل القسم الثالث عبارة عن الوضعية الختامية ( خراب الجنين ) وفي كل مرة يستغرق الباحث بالأرقام والحروف - كما تقدم -.

**المستوى السطحي:** وهنا يقع الباحث في مشكلة حقيقية، فهو يتناول القصة سيميائياً، عندما يحاول إسقاط الإجراءات السيميائية على هذه القصة القرآنية، فلا يراها تليبي مطلوبه، ولذا يقر أن الأمر مختلف لأنه أمام خطاب الله سبحانه، وللتوضيح أكثر أقول: - إنه يعترف بصعوبة الحصول على الكشف عن البنية العاملة لهذا المثل بسهولة؛ والسبب أن الله هو المنجز لأغلب الأفعال، ومتربح الأحداث من بعيد. . .، ثم يرسم لنا ترسيميتين عن الرجلين من حيث الرغبة والتحيين والنتيجة، وهي سلبية في حق صاحب الجنين وإيجابية في حق الفقير المؤمن. ومرة أخرى نود أن نرى جديداً يضاف إلى معاني المثل فلا نجد إلا محاولة لتطبيق منطق أرسطو، وتعديلات السيميائيين عليها، على النص القرآني. يعترف الباحث بأن المثل خلا عن المساعد والمعارض؛ لأن الله سبحانه هو الفاعل؟! إذن لا يصلح هذا المنهج لتفسير كتاب الله، فالسيميائية تفترض وجود مساعدين ومعارضين في المثل. ووقوفه أمام الزمان والمكان اللذين حدثت فيهما القصة فهو يقر أنها ليسا مهمين في القصة القرآنية، وهذا مخالف للمنهج السيميائي القائم على إعطاء الزمان والمكان الأهمية الكبرى في تحليل النص. وأما إطلاق كلمة ( الوحدات ) على الألفاظ القرآنية، والوقوف عندها، وتحليلها نفسياً فهو الآخر ليس شيئاً جديداً، وربما مر عليها أغلب المفسرين مروراً، لكن ليس لأنهم كانوا يجهلون المعاني التي تنطوي عليها تلك الكلمات من مثل ( أنا - أكثر - مالا - أعز - نفراً ) التي تدل على العجب والغرور، وكلمات مثل ( يا ليتني ) التي تدل على الحسرة. فهذه الألفاظ تنبئ بمعانيها مباشرة ولا نحتاج إلى دراساتها سيميائية، فضلاً عن أن المفسرين الذين انتهجوا المنهج التحليلي في اللغة والبلاغة والأدب قد تعرضوا لها، كالزمخشري والرازي وسيد قطب، وقد رجع إليه - سيد قطب - الباحث مراراً. كما أن التقسيم للأفعال الذي رسمه الباحث من ماضٍ، ومضارع، ومستقبل... ليس جديداً عند مفسرينا، فالرازي قد أشار إلى أن الوظائف النحوية والتركيبية تتحالف مع القيم المعنوية لكي تعبر بشكل مطابق وصريح عن جدلية العلاقة بين الشخصيات في القصة.

**4- البنية العميقة والمربعات السيميائية:** والمقصود بالبنية السطحية البرامج السردية والتي يؤسس من خلالها المعنى، من خلال التركيبة السردية والتركيبية الخطابية. وأما البنية العميقة فالمقصود هو المنطق العميق - المرجعيات - الذي يحكم الدورة الدلالية، والحق أن وضوح القصة كما قصها الله علينا، والمقاصد المتوخاة فيها لا تحتاج إلى مثل هذا التكلف، ولا تتحمل مثل هذا التعقيد الذي يأتي على حساب يسر القرآن الكريم وإمكانية تدبره لكل من أوتي ذوقاً سليماً من لغة القرآن الكريم. فما الجديد المتوخى من أن أقسم العلاقة إلى ثنائيات، ثم أفرع ضمن هذه الثنائيات قضايا منطقية، مجردة عن الشحن العاطفي الذي تفيض به القصة، من خلال تحقير منطق الغني وتبجيل منطق الفقير المؤمن بالله. ما الذي سنضيفه إلى التفسير إن قلنا إن العلاقة بين المنكبر والمتواضع هي تضاد، بينما العلاقة بين المنكبر واللامتكبر هي علاقة تناقض؟! هل نحن مطالبون بإخضاع القرآن الكريم لمنطق أرسطو، وإجراءات السيميائية؟

#### المبحث الثالث: قصة صاحب الجنين من خلال التفسير المقاصدي:

**التفسير المقاصدي: لغاً:** المقاصد جمع مقصد، وهو مصدر ميمي مأخوذ من الفعل قصد قصداً ومقصداً. وأصل دلالاته لغوياً تدل على إتيان الشيء وأتمه ( الفيومي، 1994: 504 )

**المقاصد اصطلاحاً:** لم يكن لمصطلح المقاصد ذكر في القرون الأولى، وإنما كانوا يكتفون بالإشارة إلى ما تحققه الأوامر من جلب المصالح، والنواهي من درء المفاسد (ابن عبدالسلام، 1993: 8/1) بل ظهر في القرن الثامن على يد الإمام الشاطبي، كمصطلح استخدم إلى جانب الشريعة، أي الأحكام الشرعية المودعة في كتاب الله سبحانه وتعالى. لكنه - الشاطبي - لم يضع لها حداً جامعاً مانعاً، وأما في العصر الأخير فقد اهتم العلماء بها كمنهج صالح لدراسة كتاب الله، ولذا كثرت التعريفات فيها، فعرّفها البيهقي بقوله: " المعاني والحكم ونحوها التي رعاها الله في التشريع عموماً وخصوصاً، من أجل تحقيق مصالح العباد " ( البيهقي، 1998: 37 ) وعرّفها وصفي أبو عاشور بقوله: " لون من ألوان التفسير

يبحث في الكشف عن المعاني والغايات التي يدور حولها القرآن الكريم كلياً أو جزئياً مع بيان كيفية الإفادة منها في تحقيق مصلحة العباد ( أبو عاشور، موقع شبكة الألوكة: 7) ثم أردف قائلاً: "والنص على بيان كيفية الإفادة منها جاء للتأكيد على أن التفسير ليس للتفسير وحسب، وإنما لبيان كيفية استنزال هدايات القرآن للواقع المعاصر، وكيف تفيد منها الدوائر الاجتماعية المختلفة" (أبو عاشور: 7) وهنا يظهر أن هذا التعريف أشمل من الذي قبله؛ إذ اكتفى - الأول - بما يتعلق بأيات التشريع في القرآن، لكن مقاصد القرآن تشمل إلى جانب التشريع العقائد والعبادات والأخلاق. أي أن بينهما عموماً وخصوصاً. والحق أن الحديث عن مقاصد القرآن الكريم لم يصل إلى مرحلة النضج والكمال بعد، بل هو في طور النمو والدراسات الكثيرة، فالمفسرون الذين اهتموا ببيان الأغراض والأهداف لكل سورة ومقاصدها لم يحرصوا على بيان المقاصد لكل الآيات، بل كانت تأتي من خلال تفسيرهم التحليلي الذي يعتمد تفسير الآيات وفق ترتيب المصحف، كابن عاشور مثلاً وكذلك سيد قطب. وأما ما يتعلق بالأمثال القرآنية وكذلك القصص فقد حازا بالاهتمام الأكبر في الدراسات المعاصرة لما لهما من تأثير بالغ على قارئ القرآن الكريم، ولما جاء تصريحاً من رب العالمين في حقهما من كونهما عبراً وعاتباً وآيات للناس. لقد أخبرنا ربنا سبحانه وتعالى أن القرآن الكريم هو هداية للبشرية، وأن كل ما فيه يهدي للتي هي أقوم. ومما أودعه كتابه الكريم هذه الأمثال والقصص. ومن هذه الأمثال القصصية قصة صاحب الجنتين. فقبل الحديث عن القصة لا بد أن نستحضر السياق الذي نزلت فيه القصة، كي نقف أمام المشهد كاملاً. وقد خلا البحث عن بيان السياق وتوضيحه. وأتى للسيميائية أن تنظر إلى السياق العام للقصة، وكذلك السياق الخاص، ومن خصائصها وقواعدها التقنيكية؟!

**أولاً:** إن التناسب بين سورتي الكهف والإسراء - قبلها - واضح جداً؛ فقد ختمت سورة الإسراء بقوله تعالى ((وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك...)) وبدا سورة الكهف ب (( الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً)). يقول البقاعي: "لما ختمت تلك [ أي الإسراء ] بأمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالحمد عن التنزه عن صفات النقص... بدئت هذه بالإخبار باستحقاقه سبحانه الحمد على صفات الكمال التي منها البراءة عن كل نقص، منبهاً بذلك على وجوب حمده بما شرع من الدين على هذا الوجه الأحكم بهذا الكتاب القيم" (البقاعي: 12/2).

**ثانياً:** إن هذه القصة هي من جملة القصص الموجودة في سورة الكهف "ففي أولها تجيء قصة أصحاب الكهف، وبعدها قصة الجنتين، ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس، وفي وسطها تجيء قصة موسى مع العبد الصالح. وفي نهايتها قصة ذي القرنين، ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة، فهو وارد في إحدى وسبعين آية من عشر ومائة آية. ومعظم ما يتبقى من آيات السورة هو تعليق أو تعقيب على القصص فيها. وإلى جوار القصص بعض مشاهد القيامة، وبعض مشاهد الحياة التي تصور فكرة أو معنى، على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير. أما المحور الموضوعي للسورة الذي ترتبط به موضوعاتها، ويدور حوله سياقها، فهو تصحيح منهج النظر والفكر، وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة، وعليه فإن دراسة قصة صاحب الجنتين لن تكتمل دون الرجوع إلى السورة مجملتها، وهذا الذي غاب عن الباحث وهو يدرس القصة سيميائياً ما خلا الإشارة إلى المثل الذي أعقب القصة ( مثل الحياة الدنيا).

**ثانياً:** إذا علمنا أن قضايا العقيدة هي الغالبة في السور المكية، ومنها الإيمان باليوم الآخر وما فيه من نعيم أو جحيم، وكل ذلك مشغف بالتحذير من الاغترار بزخرف الدنيا وبهجتها الفانية، وقفنا على مناسبة ذكر هذه القصة، فقد استهل الله سبحانه هذه السورة بوصف كتابه العزيز بأنه (قيم)، لكونه زاجراً عن الشريك... وقاصاً بالحق أخبار قوم قد فضلوا في أزمانهم" (البقاعي، 12/1). إن صاحب الجنتين "يزدهيه النظر إليهما، فيحس بالزهو، وينتفش كالديك، ويختال كالطاووس، ويتعالى على صاحبه الفقير. نسي الله، ونسي أن يشكره على ما أعطاه، وظن أنها لن تبيد أبداً، ولن تقوم الساعة، لكن هبها قامت فسيجد هنالك ما هو أجمل من الجنتين وأثمر (قطب، 2003: 2270).

ولعل العلاقة بين السورة كلها وقصة صاحب الجنتين أضحت واضحة الآن للقارئ؛ فمدار القصة هو إنكار البعث تحت تأثير الاغترار بالنفس و بزخرف الدنيا وزينتها.

**ثالثاً:** سياق نزول السورة ( مناسبة الزمان): نزلت سورة الكهف في زمن كان صنائيد قريش قد بلغوا الذروة في عنادهم واستكبارهم وكيدهم للدعوة الإسلامية، حتى طعنوا في الجالسين مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من كونهم فقراء وعبيد، يقول ابن عطية: "الضمير في ((لهم)) عائد على الطائفة المتجبرة التي أرادت من النبي عليه السلام أن يطرد فقراء المؤمنين ((الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ)) [الكهف: 28/18] وعلى أولئك الداعين أيضاً، فالمثل مضروب للطائفين، إذ الرجل الكافر صاحب الجنتين هو بإزاء متجبر في قريش أو بني تميم على الخلاف المذكور أولاً، والرجل المؤمن المقر بالربوبية، هو بإزاء بلال وعمار وصهيب وأقرانهم" (ابن عطية، 1422: 515/3)، فأنزل الله هذه السورة ليبين لهم المقياس الصحيح لقيمة الإنسان في هذه الحياة، فالعبرة بالقيم والمعاني لا بالمناظر والمظاهر، لذلك كان الفانية وكذلك الرجل الفقير يمثلون القيم الإيمانية التي تسمو بالنفس وتركيها، وتتجرد عن الصفات الذميمة القبيحة. إن صاحب الجنتين ليس فرداً وجد في غابر الزمان وانتهى الأمر بموته، لا... بل هم صنائيد قريش، وهم كثيرون، وهو يمثل كل إنسان متكبر على الحق معاند للخالق، لا يقر بوجدانيته، بغض النظر عن الزمان والمكان، وأما الرجل الفقير فهو بلال وعمار وصهيب، وهو كل إنسان عاقل آمن بالله وحده، وعلم أن الدنيا فانية لا قرار لها، وأن عاقبة الإيمان هي جنات تجري من تحتها الأنهار (( واصبر نفسك... )) " وقد اختلف في الرجلين هل هما مقدران أو محققان فقال بالأول بعض المفسرين وقال بالآخر بعض آخر، واختلفوا في تعيينهما فقيل هما أخوان من بني إسرائيل أحدهما مؤمن واسمه يهوذا في قول ابن عباس، وقيل تملیخا والآخر كافر واسمه قبطوس وهما اللذان وصفهما الله في سورة (الصافات) بقوله ((قال قائل منهم إني كان لي قرين)) (الصافات: 51). وقيل هما أخوان مخزوميان من أهل مكة أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن عبد ياليل والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد" (الفتوحي، 1992: 48/8) وقد ذكر القرطبي أقوالاً كثيرة عن المقصود بالرجلين ( القرطبي، 1964: 400/10) ولا يفهم من هذا أن القرآن الكريم يرفع من شأن الفقير لفقره، أو يحط من شأن الغني لغناه، ولكن ربما كان الغنى سبباً في طغيان الإنسان، وعماء عن الحق (( كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى)) [العلق: 6/96]. لقد كان منطق كفار مكة، كما هو منطق صاحب الجنتين. إنه سبب غالب على الناس ولكنه وبلا شك ليس السبب الوحيد لا تتخذوا الصبيحة فتركنوا إلى الدنيا" يقول القرطبي: إنه "محمول على من اتخذها مستكثراً أو متعمداً ومتعمداً بزهورتها. وأما من اتخذها معاشاً يصون بها دينه ودينه وعياله، فاتخاذها بهذه النية من أفضل الأعمال، وهي من أفضل الأموال" ثم استدل بقوله عليه الصلاة والسلام " نعم المال الصالح للرجل الصالح" (القرطبي: 346/13).

**رابعا:** مناسبة المكان: يعد المكان من أركان النص القصصي وأساس من أسس بنية جماليته، ولا يمكن تصور الحدث خارج فضاء المكان وكذلك الزمان. لكنه في القصة القرآنية يتخذ المكان معنى آخر وبعداً أكبر من أن يحدد ببقعة جغرافية محددة كأن تكون في الشرق أو الغرب، وعليه فالمكان في قصتنا هو من أجمل الأماكن، إنه جنة، بل جنتان، وهذا اللفظ كاف لأن يجعلنا نعيش لحظات من الجمال والشعور النفسي الباعث على الاطمئنان والأمل والحياة، من خلال سورة كان عنوانها مخيفاً لأول وهلة، الكهف؛ فهو يبعث على الخوف والقلق والهلع، لكن العبرة بالنتائج لا

بالبدييات وبالوهلة الأولى. إن الكهف الذي يورث كل ما سبق تحول إلى مكان للراحة والطمأنينة، مكان قد تحول إلى الخلاص من ضوضاء المدينة وكفرها والاضطراب العفدي الذي عاشته (( . . . إنهم إن يظهروا عليكم بجموكم أو يعيدوكم في ملتهم. . . )) [الكهف: 20/18]، وأما الجنان، فقد تحولنا إلى منظرٍ مخيفٍ يبعث على الانقباض والجزع واليأس بعد الندم والحسرة (( وهي خاوية على عروشها. . . ))، وهذا الأسلوب يسمى بـ (التناسب بالمخالفة) ولا علاقة للسميما بذلك.

**خامساً: مقاصد القصة:** لقد نعت الله سبحانه وتعالى المال في كتابه العزيز بـ (الخير) وعن تعلق الإنسان به (( وإنه لحب الخير لشديد )) [العاديات: 8/100]، وجعله قوماً للأنفس، وسببا لحفظ البدن، ولكنه في الوقت نفسه حذر من اتخاذه غاية في حد ذاته، فشهوة المال قوية وهي غريزة في الإنسان، ولا يصمد أمامها إلا من ملأ الله قلبه بالإيمان فنظر إلى المال على أنه وسيلة لا غاية. إنه وسيلة لعمل الخيرات والإحسان إلى الخلق، مع دوام الشكر لله الذي أتاه من فضله، وكذلك ينبغي أن تكون نظرنا إلى الناس من خلال مقياس رباني مقياس التقوى، لا مقياس المادة، كما فعلها صاحب الجنتين. وحينما نبحر في ثنايا اللطائف الربانية المودعة في كتابه العزيز نجد أن ثمة ارتباطا وثيقا بين العقيدة وموضوع المال، من حيث تملكه أو استثماره أو توزيعه، لذا رأينا صاحب الجنتين قد أخذته العزة. إن التعلق الزائد بالمال، والإفراط في الإعجاب بالأنفس والإغراق في ممارسة حرية الفكر دون ضوابط وحدود تهوي بصاحبها في وادٍ سحيق. إنها قصة تبين لنا وبأسلوب بليغ وسلس عاقبة الجاحدين المغرورين وعاقبة المتواضعين الشاكرين، تبين لنا الآثار الطيبة التي تترتب على الإيمان والعمل الصالح، والآثار السيئة التي يفرضها الكفر والعناد والغرور.

### إن المقاصد الكبرى في قصة صاحب الجنتين كثيرة، وأهمها:

**الأول: تذكير الإنسان بأصله ومبدأ خلقه:** وذلك في قوله تعالى: (( أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ))؟ " وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه، الذي خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم، ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين، ولذا قال: (لكننا هو الله ربي) أي: أنا لا أقول بمفالتك، بل أعترف لله بالربوبية والوحدانية (( ولا أشرك بربي أحداً )) أي: بل هو المعبود وحده لا شريك له" (ابن كثير، 1999: 158/5).

**الثاني: خطورة الكبر والغرور:** فهما مهلكان للإنسان، وهذا ما كان من صاحب الجنتين (( أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً ))، افتخر بكثرة ماله، وعزة أنصاره من أولاد وعبيد وأقارب، وهذا هو الجهل بحد ذاته، لذا نصحه صاحبه نصيحة من يريد له الخير، ويريد أن يعود إلى رشده ويفيق من سكرته، أراد أن يتذكر أصله وطبيعته. إن المال والولد لا ينفعان إن لم يعينا على طاعة الله (( وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون )) [سبأ: 37/34]. إن إحاطة الله الكافر بهذا العقاب لم يكن لمجرد كفره؛ فإله قد يمتع كافرين كثيرين طول حياتهم، ويمهل لهم ويستدرجهم " وإنما أحاط به هذا العقاب جزاءً على طغيانه وجعله ثروته وماله وسيلة إلى احتقار المؤمن الفقير، وبهذا كان هذا المثل موضع العبرة للمشركين الذين جعلوا النعمة وسيلة للترفع عن مجالس الدعوة لأنها تجمع قوماً يرونهم أحط منهم، وطلبوا من النبي صلى الله عليه وآله وسلم طردهم عن مجلسه" (ابن عاشور، 1984: 328/15).

**الثالث: الإيمان بالبعث بعد الموت:** فصاحب الجنتين كان منكرأ ليوم القيامة، أو شاكأ (( وما أظن الساعة قائمة )) وكلاهما كفر بالله سبحانه وتعالى، ولذلك أنكر عليه صاحبه (( أكفرت بالذي خلقك من تراب )) وما قاله صاحب الجنتين قبل ذلك (( ولئن رددت إلى ربي. . . )) جاء على سبيل الاستهزاء والسخرية، كما تقدم. ولعلنا هنا نجد قاسما مشتركا بين عقيدة صاحب الجنتين وعقيدة كفار مكة؛ حيث يقرون بوجود إله، لكنهم يشركون به (( ولئن سألتهم من خلق السموات. . . )) [ إن عقيدة الإيمان بالبعث ينبغي أن تكون كاملةً يقينية لا يشوبها شك ولا تردد.

**الرابع: إعطاء الله للعبد لا يعني حبا وحرمانه آخرين لا يعني بغضا:** قال سبحانه وتعالى مقررًا هذا الأمر (( كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك )) [الإسراء: 20] وصح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث ابن مسعود " إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب، فإذا أحب الله عبداً أعطاه الإيمان" لكن هذا المعنى غاب عن صاحب الجنتين ولم يعي قصة العطاء والحرمان، فأي علاقة وربط بين الدنيا والآخرة في موضوع المال.

**الخامس: مشيئة الله هي الغالبة:** ينبغي على العبد أن يؤمن أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يسيّر الكون بما فيه من مخلوقات، ومنها الإنس والجن، وأنه هو الذي يحيي ويميت، ويعز ويذل، ويعطي ويمنع (( ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله )) أي: هلا قلت عند دخولها، والنظر إلى نعيمها وجمالها ما شاء الله، إقراراً بأنها وكل خير فيها إنما حصل بمشيئة الله وفضله، وأن أمرها بيده، إن شاء تركها عامرة، وإن شاء جعلها أثرا بعد عين، وهلا قلت (لا قوة إلا بالله) إقراراً بأن ما قويت به من عمارتها وتدبير أمرها إنما هو بمعونته وتأويده، إذ لا يقوى أحد في بدنه ولا في ملك يده إلا بالله. وفي هذه العبارة ردٌ على الفلاسفة والطبائعيين الذين يزعمون أن الأشياء تحمل قوى ذاتية.

**السادس: إشارة للمسلمين:** عرفنا - قبل قليل- أن القصة نزلت في وقت كان المسلمون يشعرون بالضعف، وينتابهم الخوف من سطوة الكفار وشوكتهم ولذلك كان نزول هذه القصة وتلاوة الرسول عليه الصلاة والسلام عليهم بشارة عظيمة لهم، وخبر مفرح يقول: إن الكفر وأهله مهزومون زاهقون لا محالة، وأن الإيمان سوف ينتصر والحق سيمتكن في النهاية، ولذا تجدد العزم منهم، وتجدد العهد منهم للثبات على طريقهم، لا يخافون في الله لومة لائم. وفي النهاية - ودائماً. . . يتجلى أفراد الله بالولاية والقدرة: فلا قوة إلا قوته، ولا نصر إلا نصره، وما يبقى عنده للمرء من خير فهو خير ما يتبقى.

ويسدل الستار على مشهد الجنة الخاوية على عروشها، وموقف صاحب قلب كفيه أسفاً وندماً، وجلال الله يظلل الموقف، حيث تتوارى قدرة الإنسان. وأمام هذا المشهد يضرب مثلاً للحياة الدنيا كلها، فإذا هي كمثل الجنة المضروبة مثلاً قصيرة قصيرة، لا بقاء لها ولا قرار (( واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض، فأصبح هشيماً تذروه الرياح، وكان الله على كل شيء مقتدرًا )) . . . وهذا هي مقاصد هذه القصة العظيمة، إلى جانب مقاصد أخرى دينوية، ولعل هنالك مقاصد غابت عنا، وهي في مجملها تنبض بالعقائد التي تحتاجها المجتمعات البشرية دائماً، عقيدة التوحيد لله، والبعث بعد الموت، وذكر الصفات التي تهوي بالإنسان إلى الهاوية، وكذلك الصفات التي تنجي صاحبها.

### هل تصلح السيميائية منهاجاً لتفسير كتاب الله سبحانه؟

لعلنا بعد أن وقفنا على تفسير قصة صاحب الجنتين من خلال المنهج السيميائي، وما فيه من إخلالٍ بمقاصد القصة، ثم المنهج المقاصدي الذي أشار إليه أكثر المفسرين، بل واتجهوه لا سيما المعاصرين، لا نفق كثيراً عند السؤال، بل سنجيب وبكل ثقة: إن المنهج السيميائي لا يصلح

لتفسير كتاب الله سبحانه. إن الفرق واضح جداً والبون شاسعٌ كثيراً بين أن يستغرق القارئ من خلال المنهج السيميائي للقصة في رموز وإشارات لا تغني من معرفة القصة، ورسوم تلهي عن الدروس التي ينبغي استخراجها، فضلاً عن مصطلحات غريبة وغامضة لم يعدها القارئ المسلم أبداً. إلى جانب المعادلات الرياضية والمنطقية، والتي تبعد الإنسان عن تدبر القرآن الكريم وهو يتلوه، والله سبحانه وتعالى ذكر في حق المؤمنين (( وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً . . . )) [الأنفال: 2] فأئني خشوع وأي إيمان سيزدادان إذا كنت سأقرأ هذه السورة وأنا أستحضر هذه الرسوم والمصطلحات الغريبة؟ لذا وبناء على المقارنة بين المنهجين أقول: إن انتهاج السيميائية في تفسير القرآن الكريم ليس أمراً رشيداً، ولا مثمراً، بل وله ضرره البالغ على الفهم السليم، فالباحثون المسلمون – المعاصرون- الذين يفسرون القرآن من خلاله ربما لا يدركون خطورة المنهج عندما يكون على حساب المقاصد الكبرى للقرآن الكريم. صحيح أنهم يعودون إلى التفسير في نقل بعض العبارات والجمل، وكذلك ذكر بعض المقاصد والدروس، لكنها ليست كافية، ولا تناسب ما خصص لها من مساحة مقارنة بالمساحة التي تحتلها السيميائية وتشغلها، وبذا تشغل القارئ عما هو أهم وأفيد. لقد أقر الباحث أن القرآن الكريم أغفل بعض التفاصيل التي لا تعطي قيمة ذاتية، لا سيما ما يتعلق بطبيعة الأشخاص الفيزيولوجية، فركز على أفعالهم وسلوكياتهم وصفاتهم ومواقفهم، وهذا - كما هو واضح - يتنافى تماماً ومبدأ السيميائية القائم على ملاحظة هذه العلامات لا سيما المادية منها.

والسيميائية القائمة على التفكير لا تستطيع أن تنظر إلى القصة كاملة على أنها وحدة موضوعية، يأخذ أولها بحجز آخرها، بل القرآن كله وحدة موضوعية، ولا يحل التفسير دون النظر إليه من خلال هذا المقياس. إن السيميائية التي تقول باعتبارها العلاقة بين الدال والمدلول - حسب فهمهم، وبلا نهائية المعنى تتنافى تماماً مع خصائص القرآن الكريم. إن التأكيد على أهمية هذا المنهج، والدفاع عنه والثوق به يتعارض مع النقد ما بعد الحدائث الذي قام لناهاض العقلية الوثوقية في المناهج والآليات التي تؤدي إلى نتائج مضللة تناقض فاعلية وحركية النقد القائمة على الشك، فكيف يستسيغون جعل القرآن حقلاً لمثل هذه التجارب؟!

وأخيراً فإننا لا نوافق الباحث في طرحه، ولا نشاطه ولا نؤيده في أننا سنجد جديداً في التفسير من خلال منهجية سيميائية، بل رأينا أمراً سلبياً بالغ الخطورة، يتمثل في احتلال السيميائية مكاناً كبيراً كان مخصصاً للمقاصد العظيمة في القصة.

### النتائج:

تبين لي من خلال دراسة عمل الباحث ما يلي:- السيميائية منهج وُلد في الغرب، وترعرع هناك، وموضوعه هو الأعمال الأدبية (البشرية).- الجمع بين المنهج الإسلامي المعهود والمنهج السيميائي في تفسير كتاب الله - كما فعل الباحث - محاولة غير ناجحة ولا موفقة، لخطر الكبر على تفسير كتاب الله لا سيما في مقاصده. - السيميائية حقل غني بالرسوم والرموز والإشارات والأشكال الهندسية والمعادلات الرياضية والمنطقية، وكلها تبعد المسافة بين قارئ القرآن الكريم وتدوقه لحلوة القراءة. - قصة صاحب الجنين لها مقاصد أصيلة وعظيمة، ودروس وعبر ولطائف، وقد أبرزها المنهج المقاصدي بجلاء، وفي مقدمتها الإيمان بالله الواحد الأحد، وبالبعث والنشور، في حين جاءت في الدراسة السيميائية عَرَضاً، ويظهر كأنها غير مقصودة لذاتها، بل جاءت لإكمال الصورة والمشهد- حسب نظرهم- ولم تأخذ حظها من الاهتمام والوقوف والإبراز. - القراءة السيميائية للقرآن الكريم ذات نتائج جافة من خلال مقدمات أكثر جفاءً، في مقابل القراءة المنهجية الإسلامية والتي تتدفق بالمعاني والتفسيرات الجديدة، والتي تزيد الذين آمنوا إيماناً وتسليماً. - الباحث - من خلال بحثه- يظهر بأنه مسلمٌ مقدسٌ لكتاب الله سبحانه، والدليل على ذلك عودته إلى المراجع الإسلامية المعتمدة في التفسير. ولا يُصنّف مع الحدائثيين أمثال محمد أركون وهاشم صالح وآخرين، الذين دعوا إلى نيل التراث التفسيري تماماً. - لقد قرأت عدة دراسات شبيهة بهذه الدراسة، وكانت النتائج متقاربة جداً، وهذا المنهج الذي شغف به كثير من الباحثين المعاصرين يسيء إلى الدراسات الإسلامية العلمية المتعلقة بالقرآن الكريم من حيث لا يعلم كثير منهم هذا الأمر. فضلاً عن عدم تخصصهم في الحقل التفسيري.

### التوصيات

هذه بعض التوصيات التي كانت تجول في صدري وأنا أكتب في هذا البحث، أدونها والأمل كبير بأن تلقى آذاناً صاغية، وهي: 1- جعل المناهج الغربية مادةً دراسيةً أساسيةً في مرحلتها الماجستير والدكتوراه، من خلال دراسة موضوعية لها، دون أحكام مسبقة. 2- بيان خصوصية القرآن الكريم، وعدم السماح بمحاولة تطويعه ليكون مادةً للمناهج الغربية، ومنها السيميائية. 3- الدعوة إلى عدم السماح بمثل هذه الدراسات التي كثرت في الآونة الأخيرة من خلال جعل قصص قرآنية موضوعاً من خلال دراسة سيميائية لنيل الدرجات العلمية من خلالها.

### KAYNAKÇA

- El-ezheri, M. Tezhibu'l Lugate ,Teh:Ahmet El -Berduni Ve'l -Aherune Ed -Dar El -Mısıriyete Li-Telif
- Emud'uş,F.(2010) ,El -Menhecu'l Simyai , Makalete Menşurete Ala Mevki Şebekete El -Lugate'l-Arabiyyete
- İbn-Aşur,M.(1984) , Tahrirü 'l Mana Es-Sedid Ve tenvirü'l Aklı El-Cedid Min Tefsiri'l Kitabü'l Mecid.El Dar El-Tunusiyete Linneşir
- Ibn -Arabi ,M.El- Futuhatu'l Mekkiyete , Beyrut :Dar El -Kutub El -ilmiyyete
- Ibn -Atiyye El -Endelusi , Ayn.(1422) El -Muharerul veciz Fi Tefsiri El -Kitabi' l Aziz, Teh :Abdusselam abduş-Şafi Muhammed, Dar El -Kutub El -İlmiyyete
- Ibn-i Manzur, M.(1697)Lisanu'l Arabi , Daru Sadir
- Ebu -Aşur ,Vav .(2013) Et – tefsirul Makasidi Li- Suveru'l –Kur' ani 'l Kerim, Mevki Şebekete El -Eluket
- Burhanettin El – Bikaai ,.Nezmud -Dereri Fi Tenasübü'l Ayi Ves-Sur, Daru'l -Kitabu'l İslami
- Benkerad ,S.(2012),Es-Simayaiyatu Mefahimuha Ve tatbikatuha,Dar-ul Hevar Lin-neşir
- El-Tehanuyi, M.(1996), Mevsuatu Keşşaf Istilahatu'l -Funun Ve 'Ulum , Teh : Ali Dehruç,Ter; Abdullah El -Halidi , Mektebetu Lübnan Naşirun.

- Cebran ,Ayn .(1988),Mefhumus-Simyaiyetu , El-Hevaru 'l Akademi Ve 'l Cami , El -Adedu El -evvel .
- El -Cevheri , Elif .(1987), Es-Sihahu Tacu'l -Lugate Ve -Sihahul -Arabiyyete , Teh :Ahmed Abdu ' l Gafur İtar , Dar 'ul -İlmu Li 'IMelayin
- El-Helevani,Yan.(2005),Fi -Kiraate's Simyaiyyete Matbaatu't -Tefsir 'il -Fenni
- Hemdavi ,C.(1997), Medhel ile'l Menhecil Simyai , An: Can Klod Kouki ( Ve hüve Bi'l Frensiyete) ,Mecelletu Alimu'l Fikr ,mec.3.
- Ed-Ciliyi,H . Cuzur En-Nazariyete's -Simyaiyyete Fi -Hitab El -Kurani .
- Deffte,B.(2003),İl'mul Simyai Fi't -Turas 'il -Arabi,Mustelun min Mecelletu't – Turasu'l -Arabi, El – Aded.91
- Er-Razi ,M.(1420),Mefatuihu'l Gayb,Daru İhya'u -Turas' ul Arabi .
- Er-Ragıp El-Esfehani,He.(1412)El-Mufredatu Fi Garib'il Kuran , Teh: Safvan Adnan Davudi, Daru'l Kalem, Ed--Dar Eş-Şamiyeti
- Şeyh Emin, B.(1973)Et-Tabir' ul -Fenni Fi 'l Kuran 'il Kerim, Dar'u-Şark .
- Aleyu, Ayn, Simyaiyete'l Emsal Fi'l Hitabi El -Kurani
- El- Feyumi,Elif,El-Misbahu'l Munir Fi Garibu's-Şerhul Kebir Li 'Rafi, Teh :Abdulazimuş-Şenavi, Daru'l Mearif
- El -Kurtubi,Mim(1964), El-Camiu'l Ahkam'ul Kuran, Teh :Ehmed 'ul Berduni Ve İbrahim Etfiş Daru'l Kutubu'l Mısriyete .
- Kutup, Sin(2003),Fi Zilal'il Kuran, Daru-şuruk .
- El-Kenuci, Sad.(1978),Ebcedu'ul Ulum-El -Veşy'ul Merkurum Fi Beyani Ehvalu'l Ulum, Menşuratu'Sekafete Ve'l İrşad El -Kumi .
- Mubarek,He .(1987) Durusu Fi Simyaiyat , Dar'u Tubkal Lin-neşr
- El -Merteci, Elif.(1987), Simyaiyetun -Nas 'ul Edebi ,Efrikiyeş-Şerk .
- El -Mesdi, Ayn.(1994), El -Mustalahun -Nekdi, Müessisatü Abdül'ü Kerim Bin Abdullah Lin-neşr Ve 't Tevzi.